الواضح الذي ينبع من هذه المجموعة ، فان توفيق فياض لا يسقط في الرومانسية . يحاذيها ، ويلتجيء الى الرموز التي تستطيع ان تحمل نوازع شعبه وآماله ومعاركه النضالية .

٣ ــ البعد الانساني للفعل التاريخي :

في قصة « ليلة القدر » يتوحد البعد الانساني بالفعل التاريخي بشكل مذهل . فالنضال ليس مجرد رفع شعارات سياسية او تعلق شامل بالارض انه بحث عن الانسان من خلال النضال والارض . فالارض تكشف في اعماقها عن الانسان الرابض هناك . ففي ليلة القدر تقدر سنية ابنة السابعة عشرة ان تبحث عن نور عينيها بيديها . فهي فقدت البصر رغم جمال عينيها ولا تزال منذ سبعة عشر عاما تنتظر ان يرد النور الى عينيها بقدرة ما . لكنها تكتشف من خلال ليل الانتظار الطويل ان لا شيء يرد لها بصرها سوى نضالها هي : « ــ ما عدليش عالصبر يا ستي ... وان ما فرجتها انا عحالي مش رح الله يفرجها » ، هكذا تخاطب سنية جدتها التي تدعوها الى انتظار الفرج وتخرج الى الطريق باحثة عن الضوء . في هذه القصة يصل الرمز الى غايته ، فاذا كان الرمز هو محاولة اعادة تصوير الواقع بواسطة رموز واقعية تسهل اقامة العلاقات المعقدة بينها، فان قصة ليلة القدر تصل الى هذه الرؤية النافذة. فسنية اليوم أصبح عمرها خمسة وعشرين عاما ، لكنها لا تنتظر . انها تقاتل في الشارع في سبيل عينيها ، في سبيل جراح أم الخير ودماء امين سعد المنثورة على طرقات حيفا .

قصص توفيق فياض من خلال ابعادها الثلاثة ، تحاول الكشف عن العمق الانساني ، عن التوق الى الجدية في علاقة الانسان الصراعية بالحياة . من هنا فجميع ابطاله الرمزيين يكشفون في ذواتهم عن انسان يتطلع بحدة الى الخلاص . وفياض يتوجه الى وجدان جماعي . الى الوجدان الفلسطيني المناضل . من هنا فشخصياته فلاحية. وحين يصل الى البرجوازية فانه يصور فسادها وسقوطها امام ارجل المحتل .

الفعل التاريخي الذي تدعو اليه هذه المجموعة هو فعل انساني في الاساس . فالتكوم حول الارض الفلسطينية لا يجد معناه الحقيقي بمعزل عن الانسان الفلسطيني الذي يصنع هذه الارض بجراحه وعرقه . هكذا لا يسقط فياض في التعليمية والمباشرة . انه يبحث عن الانسان فيما هو يبحث عن الارض ، وصوت الانسان يأتي من جراح أم الخير وتأوهات حمدان الراعي ومحبة قاسم للكلب ودخول امين سعد في البحر الجماهيري الذي يصير وقع اقدامه على الارض نشيدا لهذه الارض .

ان الصوت الفلسطيني القادم الينا من الارض المحتلة في هذه المجموعة القصصية ، هو صوت ناضج غنيا . فالقضية رغم مباشرتها وحرارتها لا تحجب الجهد الابداعي الذي تبذله ريشة الكاتب . فتعدد الاصوات داخل القصة الواحدة ، والقدرة على ولوج اللاواقعية دون الوقوع أسير النظرة الاحادية للامور ، بمعنى دون الوقوع في متاهة اعادة ترتيب الامور بشكل غير واقعي ، وبالتالي الابتعاد عن الارضية التي عليها يقف العمل الفني الثوري ، ثم وبالاخص القدرة على الدخول في العالم الفلاحي دون الوقوع في الرومانسية الجاهزة التي تستطيع ان تقضي على العمل الفني في مهده . كل هذه المؤشرات تدلنا على الطاقات الكامنة خلف القصة القصيرة التي لا تستنفد . فاذا كانت حياتنا العربية لا تزال ، في مختلف أبعادها الثقافية والسياسية والاجتماعية ، أسيرة عدم القدرة على التحرك الثوري الجذري بمعنى عدم القدرة على اعادة فهم تراثنا الثقافي ورسم الابعاد السياسية والفكرية للحركة النضالية الواقعية في حركتنا الثورية العربية ، فان القصة القصيرة قادرة عبر ايجازها والتقاطها للجزئيات ، ان تطل على مشارف كليات حياتنا النضالية العربية دون الوقوع اسيرة التعميمات .

ان شهادة « الشارع الاصفر » شهادة مليئة بالغنى والدلالات . وتوفيق فياض استطاع بتجربة فنية متواضعة ان ينقلنا الى أعماق الجرح الفلسطيني ، الى اعماق وجدان الذين بقوا في الغيتو العربي يقاتلون ويموتون .

أ. خ.